المنطلقات العلمية والفلسفية للنحو التوليدي

- قراءة توصيفية في الفكر التشومسكي-

د. حاج هنّي محمد/ د. جميلة روقاب
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف–الجزائر

ملخص:

يسعى هذا البحث للكشف عن أهمّ نتاجات الفكر اللغوي الأمريكي لدى نعوم تشومسكي الممزوج بالعديد من العلوم بما فيها الفلسفة؛ إذ يتضح اهتمامه الكبير في تأكيده على الطابع البشري العقلاني للغة في علاقتها بالفكر والمعرفة، وهذا ما أدّى به إلى إقامة نظرية عامّة للغة صادرة عن العقل؛ لكونه الاتجاه الذي بدأ خافتا في كتاباته الأولى ثمّ ما لبث أن قوي وصار أساس المنهج كلّه، وبذلك ساهم **تشومسكي** في الدفع بالبحث اللساني المعاصر ليصبح جزءا هامّا من النقاش العلمي الذي فتحت أبوابه العلوم المعرفية والإدراكية حول البنيات الذهنيّة والفكرية التي تميّز الإنسان، وفي الوقت ذاته أصبحت نظريته التوليدية على درجة عالية من التعقيد والتجريد.

الكلمات المفتاحية: الأبنية النحوية- النظرية التوليدية- الكفاءة اللغوية- اللسانيات العرفانية- القواعد التحويلية.

Abstract:

This research aims at uncovering the products of the American linguistic thought for Chomsky, and which is mixed with numerous sciences , including philosophy, as his great interest is evidenced in his emphasis on the human and rational aspect of language in relation to thought and knowledge, and this is what led him to the establishment of a general theory for language issued by the mind, being the trend that started dimmed in his early writings then grew stronger until it became the essence of the whole doctrine. This way Chomsky contributed in the making of the contemporary linguistic research an important part of the scientific debate whose doors were opened by cognitive sciences to mental and intellectual structures that characterize the human being, meanwhile his generative theory became at a high level of complexity and abstraction.

key words: Grammatical structures – Generative theory- linguistic competence- Theological linguistics- Transformative rules.

مقدمة:

إنّ التمييز الذي حدث في بداية القرن العشرين هو التحوّل من اللسانيات التاريخيّة التي كانت تهدف إلى معرفة تاريخ اللغات، والكشف عن العلاقات الموجودة بينها ضمن ما عرف باسم العائلات اللغوية، إلى ما أصبح يعرف باللسانيات الآنية التي تعنى بوصف لغات وتحليلها كما هي موجودة في نقطة معيّنة من الزمن. وبالخصوص الزمن الحاضر، وكان أوّل من نظّر في هذا المنهاج الجديد العالم اللغوي السويسري **مونغين فردينان دي سوسور** (M.F DE SAUSSURE)، واتّبعه في ذلك علماء أخرون سواء في أوروبا أو حتّى في أمريكا.

وقد بات من المعروف لدى الباحثين المتخصصين في الحقل اللساني، أنّ الدرس اللغوي من القرن العشرين قد اقترن بالأب الروحي للسانيات "**دي سوسور**" الذي كان متأثرا بالفلسفة الاجتماعية **لإميل دوركايم**؛ أمّا النصف الثاني من القرن فارتبط بعالم شغل المعاصرين بنظرياته في طبيعة اللغة ومنهج دراستها ومبادئها ومدرسته التي أسسها بلا منازع، لذا في هذا البحث الموسوم بـ: " المنطلقات العلمية والفلسفية للنحو التوليدي –قراءة توصيفية في الفكر **التشومسكي**"، سنحاول الإطلاع على أهمّ نتاجات اللغوي الأمريكي **أفرام نعوم تشومسكي**(Noam.CHOMSKY) كنموذج للفكر اللغوي الغربي الممزوج بالعديد من العلوم بما فيها الفلسفة؛ أين يتضح الميدان الرئيسي الذي شغل حيّزا كبيرا من حياة الرجل في الدراسة والتحليل ألا هو اللغة،

حيث اتخذها منطلقا وضع من خلالها الأسس النحوية التي قعّدت للنحو التوليدي التحويلي كمنهج جديد مغاير لاتجاه اللسانيات الوصفية؛ فكيف كان يُعمِل **تشومسكي** فكره بشكل دائم في ميادين مختلفة، ومتعددّة المتجاوزة بذلك إطار اللغة لتشمل كافّة النشاطات التواصليّة، والإنتاجيّة الفكرية، والعلمية، والفلسفية؟ وكيف استطاع أن يتكيّف معها جميعا في دراسة اللسانيات والنحو.

- مياسم المشترك العلمي في الاستدلالات التوليدية التحويلية التشومسكية:

1- علوم الفيزياء:

تظهر معرفة **تشومسكي**[1] بالفيزياء من خلال البرنامج التوليدي، وما طرأ عليه من تغييرات في فترة السبعينات، وإتباعه لأسلوب جديد في البحث يدعى في

[1] ولد أفرام نعوم تشومسكي في السابع من كانون الأوّل (ديسمبر) من عام 1928م، في ولاية فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو ينحدر من عائلة يهودية متطرفة سياسيّا من أصل روسي. كان والده من كبار علماء العبرية، ويذكر تشومسكي تصحيح أصول أحد كتب والده عن العبرية في طفولته فكان من المؤشرات التي أوحت إليه بأنّ اللسانيات قد تلائم ميوله الفكرية، حصل تشومسكي على دبلوم الدراسات العليا عام 1951م، وأعدّ رسالة ماجستير حول العبرية الحديثة، وفي عام 1955م نال درجة الدكتوراه التي كانت خاصة بالتحليل التوزيعي بعنوان: البنية المنطقية للنظرية اللغوية، أين نراه يعتني بالاستخدام الإبداعي للغة ثمّ تصوّرها بوصفها استخداما عاديّا، وهي حقيقة لم تعالج في النحو التقليدي أو اللسانيات البنيوية، وكانت قد ظهرت بوادرها في أعمال اللغويين السابقين أمثال: (همبولدت- وبول باسي ويسبرسن) ، كما شغل تشومسكي بعدها منصب أستاذ في معهد ماساتشوس للتكنولوجيا (M.I.T) وهو المعهد الذي نضج فيه فكر تشومسكي بسبب تلاقح الأفكار وامتزاجها، وتعايشت فيه نظرية الإعلام والمنطق والرياضيات وعلم النفس والسيبرنيطيقا (Cybernétique)، دون إغفال الترجمة الآلية.

الأدبيات الإبستمولوجية بالأسلوب **الغاليلي**[1]؛ ومعناه ذلك الأسلوب الجامع **بينه وغاليلي**(1642م-1564م)، كونهما دشّنا معا فترة جديدة في تاريخ البحث العلمي الأوّل في مجال اللسانيات (اللغة)، والثاني في مجال الفيزياء ومنهجهما المحوري[2]. لهذا تعتبر "**نظرية الوسم**[3]" لدى **تشومسكي** مرحلة من مراحل تطوّر النماذج التوليدية في مبادئ نظرية الربط العاملي، ونظرية الحركة الحقيقية (نظرية المواد الصلبة والدينامية)، هي فكرة دوران الأرض حول الشمس لدى غاليلي، فمفهوم الوسم عند **تشومسكي** يماثل مفهوم الحركة الحقيقية عند **غاليلي**، إذ ليست كلّ البنى والصور القولية في اللغات الطبيعيّة في مستوى متشابه من الطبيعة[4]،

يعد كتاب الأبنية النحوية، الذي صدر سنة 1957م، من أهم مؤلفاته؛ فهو دستور مذهب جديد هو المذهب التوليدي؛ وقد دقّقه تشومسكي في كتابيه: مظاهر النظرية النحوية، ومقولات نظرية النحو التوليدي، وبعدها سعى تشومسكي لكشف المنطلقات الفلسفية في نظرياته فكتب: الألسنيات الديكارتية، واللغة والفكر، هذا ولم تقتصر شهرته على مجال اللسانيات أو المجال العلمي فحسب؛ بل تعدّته إلى ميدان الكتابة في السياسة. وعرف بانتقاداته لسياسية الولايات المتحدة الخارجية من خلال مقالاته المختلفة، لعلّ أبرزها مؤلفه الموسوم "الدول الفاشلة" الصادر سنة 2010م.

[1] قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، حافظ اسماعيلي علوي وامحمد الملاخ، منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ولبنان، بيروت، ط1، 1430هـ- 2009م، ص:149

[2] المنهج المحوي: منهج اتبعه كل من غاليلي في الفيزياء، وتشومسكي في برنامجه التوليدي في إعادة بناء أسس جديدة للبحث العلمي؛ فالثورة العلمية لا تأتي من مجرّد نقد للمفاهيم والتصورات التي تقام حول الظواهر، وإنّما من نقد جذري للمحاور التي تؤسس الاستدلال، ينظر: المرجع السابق، ص:148-164.

[3] نظرية الوسم: تعني عند تشومسكي (النحو التوليدي)، ونظرية الحركة الحقيقية (نظرية المواد الصلبة والدينامية) عند غاليلي. ينظر: مصطفى غلفان ومحمد أملاخ وحافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات التوليدية- من النموذج ماقبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2010م، ص: 216-217.

[4] اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1986،ج:1، ص:30.

ذلك ما يعكس التصوّر الفيزيائي في الفكر اللغوي لدى **تشومسكي**. لقد عمّق هذا الأخير البحث في العلاقة المنهجية التي يمكنها أن تجمع اللسانيات بالعلوم الطبيعية، لاسيما في مستوى تناول الظواهر والأسلوب المتبع في ذلك داعيا إلى إتباع ما اصطلح عليه "الأسلوب الغاليلي"؛ أي الاهتمام القليل بالمعطيات، مقابل الاهتمام المتزايد بالعمق التفسيري وبالمبادئ[1].

2- علم المنطق والعلوم الرياضية:

لعل أهمّ ما جاء به **تشومسكي** أنّه أرجع- اللّسانيات- إلى الفلسفة والمنطق؛ أي أعادها إلى العقل وهو يرى أنّ وصف الأشكال اللغوية في وضعها الظاهر لنا لا يقدّم علما، ثمّ إنّ الوصف المحض للظواهر دون تفسير لها، ودون تعليل لا يعين على فهم طبيعة اللغة[2]. حاصل الأمر أنّ قراءة قسم كبير من دراسات **نعوم تشومسكي** تكشف حقيقة هذا النحوي، الذي كان مولعا بالرياضيات أيضا، وربما ذلك بسبب نشأته في محيط من العلماء، والمناطقة، والمفكرين، ممّن امتلكوا ذكاء خلاّقا، ومع بروز النحو التوليدي أصبح من الضروري تقييد علاقة اللسانيات بالمنطق والرياضيات، وتحديد القيمة الإبستيمولوجيّة لهذا الاتصال، فكان أوّل عمل متكامل يجسّد نتائج هذا الالتقاء بين علمين متمايزين (الرياضيات واللسانيات)، هو المشروع المشترك بينه وبين العالم اللغوي **ميللر** (Miller)[3]؛ إذ

---

[1] عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية...، ص:23.

[2] تمام حسّان رائدا لغويّا- بحوث ودراسات مهداة من تلامذته وأصدقائه، عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، ص:246.

[3] نشير هنا تحديدا إلى عملهما المشترك: Hand book of Mathematical psychology,Introduction to the formal analysis of Natural langages

يراه أهل الاصطلاح ضمن هذه المعادلة يؤسّس لتوليد البنى الجملية ضمن قواعده الكلية التحويلية على مكونين هما: المعجم بطبيعة الحال، ونظام الحوسبة (الرياضيّاتي) باعتباره وسيلة لتوليد البنى الجملية استنادا على إجراء أوّليّ هو الانتقاء، وهذا الأخير هو الوحدة المعجمية (مفردة) من عدد من الوحدات المعجمية، والتي ستُستعمل في بناء الجملة مقرونة بعدد المرات التي ستستخدم كلّ واحدة منها في هذا البناء، فقد سمّى **تشومسكي** هذه المجموعة من الوحدات المعجمية اسما رياضيّا هو اسم التعداد؛ أين يجري إسقاط هذه الوحدة المعجمية المنتقاة وفقا لنظرية أخرى أطلق عليها اسم: **(نظرية سَ)** ذات المستويات البنيوية الثلاثة ابتداء بأدناها، وهو مستوى سَ الذي يمثل الرأس، والمستوى المتوسط س والمستوى الثالث، وهو الإسقاط الأكبر للوحدة المعجميّة س وفقا للشكل التالي[1]:

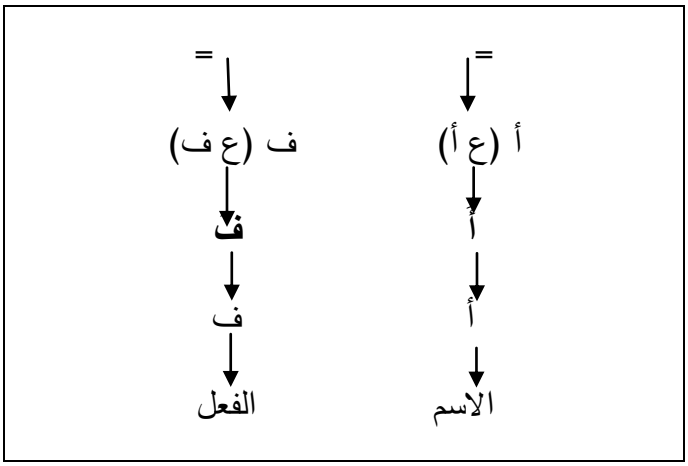

[1] ينظر: مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، مرتضى جواد باقر، دار الشروق، عمان، الأردن، ط2002ص:197.

هذا ما سماه **تشومسكي** في دراسه بمبدأ الاشتقاق في النحو التوليدي التحويلي، ناهيك عن **التفريع الشجري**[1]، والذي اقترحه عالم الرياضيات نفسه، فأضحت به اللسانيات التوليدية علما طلائعيّا بالنسبة لمجموع العلوم البشرية مكوّنة معها علاقات متينة؛ بل وحتّى مع أصناف المعرفة الأخرى، إنّها أنموذج إجرائي على المستوى التّنظيري، ويكفي أن نشير إلى **نظرية المتواليات**، وإلى **نظرية المجموعات** (Théorie Des Ensemble)[2]، لكنّ **تشومسكي** يشدّد على ضرورة الحرص على الهوية اللغوية للمعرفة اللغوية، وأنّ مثل هذا الاعتماد على العلوم الرياضيّة وغيرها، إنّما هو حالة خاصّة بالتفسير والتوضيح عقليّا بهدف تكوين مبادئ محددة داخل نظام لغوي مؤسسي. فحرصه على الإفادة من النظريات الرياضية المختلفة، نحو نظرية المعلومات والاتصالات النظرية الآلية، والأنماط التكتيكيّة، ونظرية المنابع المحددة لدى **ماركوف** (Markoff)، المستمدة من النظرية الرياضية للاتصالات[3]؛ حيث يعدّ نموذج **ماركوف** حالة خاصّة من نموذج عام هو النموذج المركبي[4]، وذلك من خلال تقيّده بمجموعة من القيود الصارمة على القواعد التي يقترحها لإنتاج جمل اللغة، وينطلق نموذج ماركوف من النتائج المتوصل إليها في الرياضيات، سيما في الجانب المتعلق بحوسبة–

[1] ينظر: المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي، عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ،1998، ص:46– 65.

[2] في اللسانيات واللسانيات العربية، تأليف مشترك: داود عبده، أحمد المتوكل، مازن الوعر، عبد الرحيم القادمي، إشراف: السغروشني ادريس وعبد القادر الفاسي الفهري، ،1988، المغرب، ص:5.

[3] اللغة والمسؤولية، نوعم تشومسكي، ترجمة: حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ط:2، 2005 م، ص: 18.

[4] اللسانيات التوليدية– من النموذج ماقبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، مصطفى غلفان بمشاركة امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي، ص53.

(Computation)– البنيات اللغوية، ومحاولة إنتاجها آليّا[1]، إنّه النموذج المعروف والمتداول بين علماء الرياضيات، والتواصل، واللسانيات على حدّ سواء.

وعليه فإنّ هذا التعالق العلمي اللغوي في الفكر **التشومسكي** ما هو إلاّ غيض من فيض، بحيث يعجز اللسان عن وصفه وحصره في بعض الكلمات، مادامت بصمات العلوم الرياضية في نموذج بنية العبارة قائمة تجلياتها لدى أتباع النظرية في أعمالهم في الربط بين علم المنطق، والرياضيات، والقواعد التحويليّة [2].

3- علم الأحياء (البيولوجيا):

يندرج هذا الطرح ضمن التصوّر الإدماجي الذي يسم مسار المعرفة اللسانية المعاصرة، بحيث تغدو اللسانيات بموجبه فضاء عبور تتلاقح فيه مختلف التخصصّات المعرفية، مثل: الرياضيات، والمنطق، وعلم النفس، وعلم الأحياء، ومهما يكن من أمر، فإنّ الجهود التي قام بها **تشومسكي** للمقارنة بين الدراسات اللسانية البيولوجية، وبين الدراسات النفسية العقلية، ومحاولته ردم الهوّة بين العلمين قد ساعدت– لا محالة– على بلورة أفكاره، وعمّقت تحليله في سبر أغوار النحو الكليّ، ومعرفة مبادئه وقواعده. لقد كان الهدف الرئيس من علم النفس هو دراسة الإنجاز اللغوي (Performance)، وليس القدرة اللغوية (Competence)؛ لأنّ

---

[1] النموذج المركبي: Phrase structure rules/ Modèle syntagmatique أو نحو المركبات Grammaires des constituant، النحو المركبي Grammaire syntagmatique؛ مجموعة من الاتجاهات اللسانية التي عرفت في الولايات المتحدة الأمريكية إبان ظهور النحو التوليدي

[2] أتباع النظرية من أمثال كل من: شيتسنبرجر (Schitzenberge, M,B)– وستانلي بياترس، وروبرت ريتش، للمزيد من التوسع ينظر: اللغة والمسئولية.

المهمة الرئيسية لعلم النفس تكمن في دراسة الاستعمالات الحقيقية، ثمّ التفسيرات لمثل هذه الاستعمالات[1].

وفي إطار الامتداد للنظرية النموذجية التشومسكية على سبيل المثال، فإنّ الدراسات والأبحاث العلمية والأكاديمية قد أثبتت إسهام التركيب السطحي في التفسير، وأنّ مثل هذه الأعمال، نحو ما قام به **جاكندوف** (R,Jackendoof) تعدّ من الأعمال النفعيّة الفاعلة التي مثلت آنذاك تطوّرا في مسار النظرية؛ إذ لعب التركيب السطحي دورا أساسيّا في التفسير الدلالي.

والحقّ يقال أنّ **اريك لينبرج** (E. Leinberg)، قد طوّر المنهج البيولوجيّ تطويرا رائعا بمعيّة معاونيه من أمثال: **تشومسكي**، والذي كان قد اصطلح عليه معارضوه بالمنهج الوراثي (Natives) بالرغم من ميل بعض النقاد والباحثين العرب- بخاصة المتأخرين منهم- إلى تسميته بـ (منهج العقل المنفتح والمتسع الآفاق)[2]، فلم يتعرض لموجات النقد الشديدة والعنيفة التي تعرضت لها المناهج الأخرى في العلوم الطبيعية، أين أمكنه ذلك من تقديم نتائج واعدة في حقل المناهج البيولوجية اللغوية. وعليه فإنّ دراسة الأسس البيولوجية للغات الإنسانية التي اعتنى بها **تشومسكي** وغيره، قد أثبتت كونها من أهمّ ما انتهى إليه العلم الحديث لهذا القرن.

---

[1] في اللسانيات واللسانيات العربية، داود عبده وآخرون ص:162

[2] دلالة اللغة وتصميمها، ر. جاكندوف وآخرون، ترجمة: محمد غاليم وآخرون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ،ط:1،2007م، ص 11-15.

4- فلسفة الذهن/الدلالة:

إنّ المعنى هو الوعاء الذي يغترف منه العلم الذي لا تسعى وراءه اللسانيات فقط، بل الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الأعصاب، فالتطبيقات العملية الممكنة للنظرية اللسانية، كالترجمة الآلية تتعثر بدون رصد للمعنى؛ لأنّ اللغويين الحاسوبيين في عرفهم يمزحون قائلين، إنّهم كلما سمعوا مشتغلا باللسانيات النظرية تصبح برامجهم أقل نجاعة، والإشكال في كون التركيب الجذّاب وحده ليس المستعمل كثيرا في مجال الفهم الآلي، فيعتبر الناس المعنى مركزيّا في كل ما هو بشريّ إذا لم يكن هؤلاء مستعدين للتعامل- على الأقلّ- مع اللغة، والذكاء، والوعي، والذات، والتفاعل الاجتماعي، والثقافي فإنّهم لن يفهموا المعنى[1].

لقد أعرب **جاكندوف** عن رأيه الذي بيّن من خلاله أنّ النحو التوليدي لم يكن له سوى القليل ليقوله عن المعنى، وفي هذا إجهاض للدلالة علما أنّ **تشومسكي** عينه كان يفضل استعمال مصطلح "التركيب"؛ ويستعمل آخرون مصطلح "دلالة" الذي حصره في دراسة ما يسمّى غالبا ترابطات بين اللغة والعالم.

5- علم الترجمة:

إنّ مفاهيم **تشومسكي** عن الطراز الثنائي للبنية العميقة والبنية السطحيّة، وقواعده التحويلية- على الرغم من أنّها مستخرجة بطريقة مؤسسة على لغة واحدة[2] 19- قد قدمت نفسها لتشكّل مسوغا تقوم عليه نظرية في الترجمة؛ سواء قبل المرء

---

[1] في نظرية الترجمة – تجاهات معاصرة، إدوين غينستلر، ترجمة: سعيد عبد العزيز مصلوح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط:1،2007، ص: 134.

[2] Mono linguistically نعني بها لغة واحدة.

معتقدات **تشومسكي** أم لم يقبلها، فإنّ بناه الباطنية (العميقة) التي افترض فيها احتواءها على جميع المعلومات التركيبية النحوية، إضافة للمعلومات الدلالية اللازمة لإجراء تحويلها تحويلا صحيحا إلى بُنى سطحيّة؛ وكلّ ذلك قد قدّم نفسه تقديما جيّدا إلى المترجم الممارس الذي يحاول أن يعمد إلى صورة لرسالة مضمرة فيقدمها في لغة ثانية.

ولعل الظهور المتزامن لنظريتين في النحو قد غيّر مسار نظرية الترجمة، ولا يزال لهاتين النظريتين تأثيرهما الفاعل إلى اليوم، ويمكن لذروة النظريات المتطورة أن تتمثّل في كتاب **نعوم تشومسكي** "التراكيب النحويّة" 1957م، وكتاب **إيوجين نايدا** (Nida)، والذي عنوانه "رسالة مهمة" 1960م، كذلك الحال في كتابه الآخر بعنوان: "نحو علم الترجمة" 1964م، وكتاب **تشومسكي** الآخر: "مظاهر نظرية النحو" 1965م.

لقد منح النحو التوليدي التحويلي مع ما اكتسبه من شرعيّة في حقل اللسانيات الصدقية والتأثير لمشروع **نايدا** في "علم الترجمة"، لتظهر نظريته على أساس ترجمته الكتاب المقدّس، في مقالات جمعت في مؤلفه الأوّل رسالة مهمة.

ولم تكن نظرية التراكيب النحوية والنحو التوليدي التي جاء بها **تشومسكي** نظرية في الترجمة؛ ولم يقصد بها أن تكون كذلك، بل إنّ **تشومسكي**– في الحقّ– قد حذّر من تطويع نظريته بمثل هذه الكيفية، والصيغ الكلية (الجامعة) التي فتن بها؛ إذ لديها الكثير مما له صلة بالقواعد التي تبنى عليها النظم النحويّة؛ أي القواعد السابقة على أيّ تصور لبنية عميقة محددة لجملة بعينها في لغة بعينها. وتشتمل نظريّة **تشومسكي** على مستويات ثلاثة من الصياغة التصورية:

–مكوّن أساس؛ يتكون من قواعد بنية العبارة، وهذه القواعد يتولد منها بنية عميقة تتغيّر بدورها عبر القواعد التحويلية إلى بنية سطحيّة[1].

ولكن قام **نايدا** بتبسيط الطراز (النظري) الذي اقترحه **تشومسكي**، ليتبنى فقط الجزأين الأخيرين من الطراز مضفيا بذلك المصداقية على العلم الذي استنبطه، كما أنّ طراز **تشومسكي** في الوقت نفسه قدّم أداة طيعة لمثل هذا التطويع الخاطئ على يد المنظرين في حقل الترجمة [2]، وها هو ذا **جورج شتينر**(G. Shtiner) يقدم أحد الأمثلة في كتابه الشامل: "ما بعد بابل" (1975م)، حيث عالج نظرية الترجمة، فرأى من الأهمية بما كان ضرورة التوسّع في التعامل مع **تشومسكي**، وما يربطها من علاقات بفهم الترجمة.

على الرغم من النقد الذي وجهه وأثاره كثيرون من اعتراضات فلسفية في وجه فرضيات **تشومسكي** عن العقل البشري– مثلا– والكيفية التي يعرف بها اللغة، يضاف إلى ذلك مسائل أخرى نحو: السليقة، الحدس، والمعرفة الضمنية، فإنّ بعض النقاد لم يجدوا في دليل **تشومسكي** ما هو مقنع لهم؛ فهناك العديد من الفروق ذات الأهميّة البالغة بين نظريتي **تشومسكي** و**نايدا**، التي من شأنها أن توضح كيف لطراز **نايدا**؛ وهو صورة مبسطة من طراز **تشومسكي**، أن يطوّع

---

[1] ينظر: الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1986م، ص: 42.

[2] Nida (Eugene Albert Nida), Toward a Science of Translating, With Special Reference To Principles and Procedures Involved in Bible Translating(Leiden : E.J.Brill,1964), p:68

تطويعا خاطئا إلى حدّ بعيد كي يجري تطبيقه على الترجمة. إنّ في قلب نظرية **نايدا** نسقا من المركبات النووية التي يشتق منها جميع ما سواها[1]، وقد انتصر لمفهوم الجمل النواة **هاريس**(Harris) وتبناه **تشومسكي** في النظرية الأولى من نحوه التوليدي التحويلي، غير أنّ **تشومسكي** أحسّ أنّ المفهوم غير واضح إلى حدّ ما، وما كان أن اختفى المفهوم سريعا إبان ظهور كتابه (مظاهر النظرية النحوية) لاحقا.

ومع أنّ مفهومه للجمل النووية[2] يكتسب دلالة حدسيّة مهمة، يبدوإن **نايدا** يخلط بين مفهوم الجمل النووية والمكون– الأساس (Component Base) كذلك فإنّ الفروق بين النظريتين من الوجهة المنهجيّة ظاهرة؛ ذلك أنّ **نايدا** يؤثر العمل في اتجاه متراجع إلى الخلف، يبدأ من ظاهر النص الأصلي، وينتهي إلى بنيه الباطنة، ويحوّل تلك البنية الباطنة إلى البنية الباطنة في تلك اللغة الجديدة، ثمّ يقوم بتوليد البنية الظاهرة في اللغة الثانية، إنّه– بعبارة أخرى– يفترض وجود حلّ للشفرة وإعادة للتشفير لا يصيب اللغة الأصلية فيها تغيير على الإطلاق[3]،

---

[1] في نظرية الترجمة، إدوين غينتسلر، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ص: 151 –152.

[2] جملة نواة Basic sentence/ Phrase noyau : في النحو البنيوي، هي الجملة البسيطة الخبري المثبتة والمبنية للمعلوم. في النحو التوليدي، هي الجملة البسيطة المولدة بالأساس المركبي للنحو. (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيات(إنجليزي– فرنسي– عربي)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002م، ص: 22.

[3] مازن الوعر واحد من بين هؤلاء الذين يفضلون تسميته بـ: ويتراءى لنا ذلك في ترجمته مقالا لنعوم تشومسكي بعنوان: "حول الأسس البيولوجية للطاقات اللغوية" (On The Biological Basis of Language)، وهو فصل من كتاب ألفه تشومسكي سنة 1980م، وعنوانه بالكامل: (Rules and Représentations)، للتوسع أكثر ينظر: المرجع نفسه، ص:145 –172

ملخصا منهجيته في الترجمة في نقاط عدّة حصرت في مؤلفه الموسوم "نحو علم للترجمة".

6- اللسانيات الحاسوبية:

تقوم اللسانيات الحاسوبية على تصوّر نظري يتخيّل الحاسوب عقلا بشريّا، محاولة استكناه العمليات العقلية والنفسية التي يقوم بها العقل البشري حين ينتج اللغة ويستقبلها، ومن ثمّ يفهمها ويدركها، ولكنّها تستدرك على الحاسوب أنّه جهاز أصمّ لا يستعمل إلاّ وفق البرنامج الذي صمّمه الإنسان له، ولذلك فمنتهى الغاية التي تجتهد اللسانيات الحاسوبية أن تحصّلها فهي أن تهيّئ للحاسوب كفاية لغوية تشبه ما يكون للإنسان حين يستقبل اللغة، ويدركها ويفهمها ثمّ يعيد إنتاجها وفق المطلوب.

وكغيره من فروع اللسانيات، تنتظم اللسانيات الحاسوبية مكوّنة فرعين: أحدهما تطبيقي عنايته بالناتج العملي لنمذجة الاستعمال الإنساني للغة، ويسعى إلى إنتاج برامج ذات معرفة باللغة الإنسانية، وآخر نظري يهتمّ بقضايا اللسانيات النظرية، على غرار النظريات الصورية للمعرفة اللغوية التي يحتاج إليها الإنسان لتوليد اللغة وفهمها[1].

لقد شهد الدرس اللساني في منتصف القرن العشرين تطوّرا حاسما، حيث اتجه البحث إلى الآلات الواصفة والنماذج، وقد تمّ هذا التحوّل بموجب تطوّرات حدثت في اللسانيات نفسها، وفي الحقول العلمية المعرفية المجاورة لها من جهة

1) http/www. Claude Shannon, Linguistique Informatique@adobe.fr

أين ظهرت بوادر الاتصال بين اللسانيات، والحاسوبيات بشكل جليّ مع ما يعرف بالنحو التوليدي، وقد أكّد "**تشومسكي** سنة 1986م"[1]هذا الاتصال؛ حين اعتبر نسق القواعد المشكّل لبنية النموذج التوليدي التحويلي، نسقا تضبطه النظرية الحاسوبية، كما اعتبر النظرية اللسانية التي يقترحها مماثلة للنظرية الحاسوبية التي يقترحها **مار**(Marr) والعاملون معه [2]، وهذا ما دفع بالتوليديين لطرح هذا الإشكال: ماذا يعني أنّ الذهن البشري حاسوب؟

إنّ ذلك يعني "أنّ القواعد النحوية التي يتبعها الناس عامة عندما يتكلّمون، هي مماثلة للقواعد الصورية التي يتبعها الحاسوب أثناء تمثيل الحسابات"[3]، فمعلوم أنّ الأدوات الرياضية الأكثر استعمالا في صياغة النماذج اللسانية كانت من نوع المنطق الجبري الذي استعمله **هاريس**، ثمّ كرّس **تشومسكي** بعده هيمنة النماذج الجبرية في الصياغة الخوارزمية للقواعد اللسانية، وقد أسهم تطوّر النماذج المنطقية ولغات البرمجة الحاسوبية في إغناء الصورنات اللسانية؛ كما مكنت نظرية المجموعات من توفير آليات صورية لجرد الأصناف، والمقولات اللسانية فمع المنطق الجبري والنموذج المشترك بين كلّ من **فوكونييه** (Fauconnier) و**لانكاكير** (Langacker) وإبستيمولوجيا **كارل بوبر** (K.Popper)[4] نعترف

---

1) Chomsky ,N :Knowledge of Language :Lts Nature, Origin and Use .New York Praeger .

2) بعض الخصائص الصورية للنمذجة اللسانية، محمد الرحالي، مقال منشور ضمن قضايا في اللسانيات العربية، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، ابن منسيك سيدي عثمان، 1992م، ص:20.

3) اللغة والفكر وفلسفة الذهن، مصطفى الحداد، مطبعة الهداية، تطوان، المغرب 1995 م، ص:97.

4) ينظر: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، حافظ اسماعيلي علوي ومحمد الملاخ، ص:105 -106.

بتأثر **تشومسكي** إذ قام بنقد إبستمولوجي لأسس اللسانيات وأفاهيمها ومبادئها ليجعل منها علما فرضيّا استنباطيّا.

7- فلسفة تشومسكي واللسانيات العرفانية: نظرة وموقف

تأثر الرجل بآراء العديد من الفلاسفة على غرار الفيلسوف الفرنسي **ديكارت** (1596-1650)، وتحليلات نحاة مدرسة بور روايا وبآراء المفكر الألماني **ويليام فون همبولدت** (1767-1835)، فمن بين القضايا الفلسفية الفكرية التي شغلت حيّزا كبيرا من الاهتمام لدى **تشومسكي** هي فكرة "العقلانية"؛ أي: هل المبادئ والأصول المنطقية للغة الإنسانية فطرية أم عقلانية؟ إذ يخيّل إلينا أنّ فكرة العقلانية هي الفكرة الوحيدة الممكن الوقوف حيالها، وهي فكرة ليست على هذه الدّرجة من القوّة التي تصوّرها عالم اللسانيات الأمريكي، فهي تقوم على دعوى وجود أصول ومبادئ منطقيّة كليّة لبناء الجمل في اللغات الطبيعيّة.

وفي هذا الصدد قال **تشومسكي**: "إنّ اللّغة المصطنعة تعتدى عند بنائها على حرمة المبادئ والأصول الكلّية، لذا لا يمكن تعلّمها البتة أو على الأقل لا يمكن تعلّمها، بسهولة ويسر كما يتعلّم الطفل العادي اللغة الإنسانية "[1]، وهذا الفرض لا يمكن إخضاعه للتحقيق التجريبي؛ إذ يستحيل علميّا تربية وتنشئة طفل صغير منذ ولادته دون حصوله على أيّ معرفة بأيّة لغة طبيعيّة البتة، ومن ثمة يتعرّض لسماع هذه اللغة الاصطناعية دون أيّ تأثير من اللغات الطبيعيّة، ثمّ كيف يمكن القيام بمثل هذه التجربة النفسيّة أو المضيّ فيها، وهي لن تقدّم أو تؤخر في الموضوع المراد إثباته؟ لعل هذا الزعم **التشومسكي** لفطريّة هذه المبادئ

1) Chomsky, the listener 30 may 1968, page:68

والأصول المنطقية له تأويل وتفسير آخر، فوجود هذه المبادئ والأصول في سائر اللغات جعلها تنحدر من أصل مشترك واحد جمعها فيما مضى، ثمّ احتفظت كلّ لغة من اللغات الإنسانيّة ببعض هذه الأصول أو كلّها. ولمزيد من التوسّع حول هذه الفكرة يكفي الاطلاع على أحد مؤلفاته[1]، حيث سعى الرجل من خلال الأصول الفطرية التي افترضها حلّ معضلتين في ذات الآن، وهما:

1- كليّة وشمول هذه الأصول إذا كانت موجودة أصلا كي تكون عامّة وشاملة بعد ذلك.

2- نجاح الطفل في تكوين وبناء قواعد لغته الوطنيّة على هدى من الكلام الذي يستمع إليه.

وعليه، فاهتمام **تشومسكي** بالشقّ الثاني أكثر من الأوّل جعله دوما يقول: "إنّ اللّغة تكتشف في كل مرّة، تتعلم فيها والمشكلة العمليّة التي تواجه نظريّة التعلّم هي كيف يتمّ هذا الكشف فيما يتّصل بالقواعد النّحويّة؟[2] سواء أكانت اللّغات الإنسانيّة الموجودة المنحدرة من أصل واحد غير معروف أم لا (كالسّنسكريتيّة) فإنّه بلا شك مواجهة الفرض يبدومن المستحيل إثباته، وإن كان من المحتمل حدوثه، ولأنّ اللّسانيّات تعدّ اليوم علما تجريبيا قائما بذاته تسعى لبناء نظريّات حول تركيب اللغة الإنسانيّة فمن واجب اللسانييّن- بل من الضروري- أن

[1] يقصد به كتاب اللغة والعقل، لنعوم تشومسكي، ينظر: ص: 74-75

[2] ينظر في هذا الصدد: اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال، المغرب، 1990م، ص:16-17.

يتعاونوا في إطار دراسة هذه الأصول والمبادئ المنطقيّة الكليّة حيث يمكن التحققّ من وجودها في كلّ اللغات أو بعضها.

وعلى ما يبدوإن **تشومسكي** كان محقا في تقديره لتنوّع واختلاف طرق التركيب في اللغات الإنسانيّة ظاهرة غير غريبة كما ادّعى ذلك البنيويّون (Les Structuralistes)؛ بل على العكس من ذلك تماما لأنّ الحاجة لمثل تلك التفسيرية الكاملة للغات الإنسانيّة ما تزال قائمة لليوم، وهذا ما يجعل معظم الدراسات اللغويّة الحديثة متأثّرة في كثير من جوانبها تأثرا مباشرا بأعماله، وهو ما يعطي دفعة قويّة وتأييدا واسعا لهؤلاء الذين يشيعون فكرة الأصول النّحويّة الكليّة التي تحكم اللغات المختلفة، لكنّ النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسات حتى اليوم ما تزال نتائج غير نهائيّة، ولابدّ أن تعني ذلك حقّا بخاصّة عند استخدام الدليل اللغوي في المناقشات الفلسفية.

ومما هو متعارف عليه في الدراسات المقارنة، أنّ الاتجاهات الفلسفيّة– المتصارعة قديما– قد فقدت كثيرا من حدّتها، ومثال ذلك: العقلانيّة في مقابل التجريبيّة، والغريزة مقابل التعلّم، والعقل مقابل الجسم، والوراثة مقابل البيئة، وهكذا حيث توجد نظائر لذلك في الدّراسات المعاصرة حول المفارقة بين سلوك الإنسان، والحيوان التي ترى أنّ السلوك الذي يوصف– عادة– بأنّه سلوك غريزيّ يحتاج إلى شروط بيئيّة يجب توافرها أثناء فترة النضج بحيث يصبح من الصعب أن ترجّح هل هو سلوك فطري؛ أم مكتسب عن طريق التجربة والتعلّم؟

يعني هذا أنّ الغريزة والبيئة كلاهما ضروريّ وأنّ إحداهما لا تستغني عن الأخرى، وبالرّغم من أنّه يضع نفسه مع العقلانيّين، إلاّ أنّه لا يريد الخضوع

لهذا التراث الفلسفي المتعارض حول العقل والجسم، لذا فهو يحدد موقفه من قضية معرفة اللغة على أساس أن إرهاصات هذه المعرفة عند الطفل– وإن كانت فطرية– إلاّ أنها تحتاج إلى شروط بيئيّة معيّنة أثناء فترة النضج.

ذلكم ما أسماه العلماء فرضا بديلا للفرض **التشومسكي**، وهوإن معرفة الأصول الكليّة والمنطقية للّغة ليست فطرية كليّة، وإنّما هناك عامل آخر تمثّل في البيئة الصالحة الّتي تتفاعل مع هذه الأخيرة، بحيث تؤدي في الختام إلى تكوين القدرة اللّغوية؛ وهو فرض عقلي لأنّه يتعارض مع اتجاه المذهب التجريبي المتشدّد الذي لم يبق من أنصاره إلاّ القليل، لأنّ كثيرا من علماء النّفس، والفلاسفة يسلّمون بأنّ بعض الملكات العقلية يختصّ بها الإنسان وحده دون بقيّة الكائنات، ولا يمكن تحديد هذه العوامل أو التعرّف عليها إلاّ من خلال البيئة والبيولوجيا معا.

يفضّل البعض منهم ألاّ تستعمل عبارة ملكة عقليّة (faculté mental) في هذا المقام، ولابدّ من الاعتراف بعدم وجود أيّ دليل يفضله من يطلقون على أنفسهم اسم التجريبيّين، يوضح أو يثبت أنّ الفرض الهزيل الذي يذهبون إليه فرض صحيح وليس معنى هذا النقد لفرض" **تشومسكي**" بلا معنى أو فرض فارغ، فما ذهب إليه يحتاج إلى دليل حاسم من حيث اعتماده على النظريّة العقليّة، ويكفيه فخرا أنّه أثبت أنّ القدرة على الكلام بلغة ما تدلّ على أنّ المتكلّم فعلا يملك – سواء بالفطرة أو بالتعلّم – عددا من القواعد التحويليّة الدقيقة قادرة على العمل على إنتاج الجمل وصياغتها، وتحليلها ومن ثمّ يستطيع الاحتفاظ بالتراكيب العقليّة المجرّدة في ذهنه. ولاشكّ أيضا في أنّه كان محقّا عندما تحدّى الرّأي القائل: "بأنّ العقل ليس إلاّ عضوا بسيط التركيب أكثر من أيّ عضو آخر من أعضاء الجسم،

وأنّ الفروض البسيطة تكون كافية لتفسير الظّواهر التي توضع من أجلها، وهو يتنكر للمبدأ الأساسي **لديكارت** حول كون العقل واللغة واعيين كليّا"[1]، حيث يشفع له إدخاله فكرة اللاوعي العرفاني في العلم العرفاني ذلك ما طبقه في النحو.

وعطفا على ما سبق ذكره، نرى أنّه– وبفضل تأثير **تشومسكي** الواسع– أصبح جيل من اللسانيّين العرفانيّين عارفا بالسلسلة الهائلة من الظواهر التي تشكل اللاوعي العرفانيّ، ولعل قوام التّحليل العرفاني هو تسليط الضوء على المبادئ الدلالية الطبيعية (لا الصناعية: المنطقية– النحوية– البلاغية ...)[2] ، كما في الوسع أن ننظر في التحليل العرفانيّ باعتباره قائما على الإدراك السابق للتقسيمات البلاغية أو النحوية ذات البعد الميتا لغوي.

خاتمة:

لعلّ هذه إحدى النقاط الجوهرية التي تتميّز بها النظرية التوليدية التحويلية التي تتبنّى مفهوما عقلانيّا للمعرفة العلمية، يتلخص في ضرورة انتقاد النظريات التي يبنيها العالم في ميدان تخصصه خلال مواجهتها مع التجريب؛ لأنّ الأساس الذي تقوم عليه هو إبطال النظريات وليس البرهنة على صحتها أو إثباتها، هذا من جهة ومن ناحية أخرى فالنظرية التوليدية لا تعتني باللغة وإنّما بالنحو؛ أي بالآلة الصورية التي تمكن من توليد عدد لا محدود من المتواليات التي تنتمي إلى لغة بشرية معينة. فلم يعتمد **نعوم تشومسكي** المقارنة بين النظام

---

[1] صميم الفلسفة: جورج لايكوف، مارك جونسن، ترجمة: محمد أحمد خليل، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 1999م، ص:469–512

[2] ينظر: أصول تحليل الخطاب، في النظرية النحوية العربية، تأسيس "نحو النص"، جامعة منوبة، كلية الآداب منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس،2001، ج:2، ص: 615–650

النحوي اللغوي، والعلوم والمعارف الأخرى عند الإنسان من: رياضيات، وفيزياء، وبيولوجيا، وعلم النفس، والفلسفة، وعلم الاجتماع...وغيرها من العلوم، ولم يقف عند هذا الحدّ؛ بل تعدّاه إلى مستوى التواصل اللغوي كي يقيم موازنة بين التواصل البشري والتواصل عند بعض فئات الحيوان، وهذا ما بيّن مدى تعاطيه لتلك العلوم والمعارف بتياراتها الفكرية واتجاهاتها الفلسفية، فظل **تشومسكي** يؤكد على الطابع البشري العقلاني للغة في علاقتها بالفكر والمعرفة.

لقد أدّى السعي الحثيث إلى إقامة نظرية عامّة للغة، صادرة عن العقل؛ لكونه الاتجاه الذي بدأ خافتا في كتاباته الأولى ثمّ ما لبث أن قوي وصار أساس المنهج كلّه، وبذلك ساهم في الدفع بالبحث اللساني المعاصر ليصبح جزءا هامّا من النقاش العلمي الذي فتحت أبوابه العلوم المعرفية والإدراكية حول البنيات الذهنيّة والفكرية التي تميّز الإنسان، وفي الوقت ذاته أصبحت نظريته التوليدية التحويلية على درجة عالية من التعقيد والتجريد.